الطابع العام لتفكير أفلاطون السياسى:

يضم التفكير السياسى عند أفلاطون عناصر تبدو فى نظر الإنسان الحديث متناقضة فيما بينها. فمن المستحيل إدراج مدينته الفاضلة ضمن أى تصنيف من التصنيفات المألوفة فى عصرنا الحالى. ولو تأملنا المقومات الرئيسية لتلك الدولة لوجدنا أن منها ما يمكن أن يوصف بأنه يتمشى مع أحدث الاتجاهات التقدمية: ففيها نوع ساذج من التخطيط. وفيها إلغاء للملكية الخاصة بالنسبة إلى أعلى طبقات الدولة، وفيها إقلال من قيمة الثروة بالنسبة إلى قيمة العقل. ومع ذلك فإن من هذه المقومات ما يمكن أن يوصف بأنه رجعى متطرف: كالاحتفاظ بالتقسيم الطبقى وتأكيده، واحتقار العمل اليدوى، وتأكيد التفاوت الطبيعى بين البشر تحت اسم "أداء كل لوظيفته الطبيعية"، والاتجاه المحافظ، المتمسك بالتقاليد الأقدم عهدا، وكراهية الديمقراطية والدفاع المتحمس عن الأرستقراطية. فدولة أفلاطون المثلى إذن تتجاوز نطاق التصنيفات الحالية لأنظمة الحكم، وفيها عناصر تبدو متنافرة إلى حد بعيد.

ولقد حاول بعض الباحثين تعليل هذا الطابع المتنافر أو المتناقض لصورة الدولة فى محاورة الجمهورية: فقال "ييجر" إن آراءه فى هذه المحاورة تصدمنا لأنه كان يهدف إلى تكوين دولة متقشفة، لا دولة مترفة كالدول الحالية. "فمن الواجب ألا ننسى أن أفلاطون كان يضع فى ذهنه الدولة الصحيحة العجفاء ذات العضلات، التى كانت توجد فى البداية، لا الدولة السمينة الممتلئة التى أتت فيما بعد، والتى أصبحت تحتاج إلى طهاة وأطباء"[1]. ومع ذلك فإن هذا الحكم يفتقر فى رأينا إلى الدقة: إذ أن أفلاطون كان يرمى فى "الجمهورية" إلى تكوين دولة كاملة، لا تلك الدولة المتقشفة التى وصف أفرادها بأنهم أشبه بكلاب الحراسة العجفاء. والدليل على ذلك أن دولته تحتاج إلى حراس، وتزدهر فيها صنعة الحرب، وهى صنعة لا تعرفها إلا الدولة المترفة: إذ أن الدولة المتقشفة لا تحتاج إلى حراس، لأن أحدا لن يريد الاستيلاء على دولة هزيلة تعيش على الكفاف. كما أنه تحدث فى مدينته الفاضلة عن عدد من المهن والصناعات التى لا يمكن أن يكون لها وجود فى الدولة المتقشفة.

ويقدم البعض تعليلا آخر لطابع الدولة الأفلاطونية هذا، فيرى "سنكلير" أن مدينة أفلاطون الفاضلة إنما هى "مثال" للمدينة، أى أن نظرية المثل أو الصور تطبق على الدولة بدورها، بحيث تكون هناك "صورة" للمدينة، تصبح

---

[1] Jaeger : Paideia, Vol. II, P. 225.

Scanné avec CamScanner

المدن الموجودة بالفعل نماذج غير كاملة لها[1]. فإذا بدا لنا أحيانًا أن لغة أفلاطون في محاورة الجمهورية، غير مفهومة أو غير صالحة لحل المشكلات السياسية، فلنعلم أن ذلك راجع إلى أن مدينته "صورة" أو "مثال" يعلو على الواقع ويترفع عليه. على أن هذا التعليل بدوره يفتقر إلى الدقة: ذلك لأن المثال ليس "مختلفًا" عن الأفراد الذين يشاركون فيه، وليس أقل منهم في شيء، وإنما هو أكمل صورة ممكنة لهؤلاء الأفراد جميعًا. وعلى ذلك فقد كان من الواجب أن تكون دولة أفلاطون المثلى جامعة لكل ما في الدول الموجودة من صفات، لا أن تكون مفتقرة إلى الكثير منها.

والأمر الذي لا شك فيه أن أفلاطون قد جمع في هذه المحاورة، على نحو فريد، بين المشروعات البعيدة كل البعد عن الواقع الموجود بالفعل - كإلغاء الأسر وشيوعية المال والنساء - وبين الأوصاف التشريحية الدقيقة لظواهر موجودة بالفعل. فهو لم يكن على الإطلاق مفكرًا مثاليًا حالمًا طوال محاورته، وإنما كان في بعض الأحيان يغوص في أعماق الواقع إلى حد يبعث على الدهشة والإعجاب.

ولنتأمل في هذا الصدد وصفه الرائع للطاغية - وهو وصف يصلح أنموذجًا لهذا النوع من الحكام في كل عصر: فالطاغية في رأيه يبدأ بداية شعبية، إذ يختاره الشعب على أنه نصيره وحاميه. وهو في البداية يبذل الوعود للناس، ويوزع عليهم الابتسامات والمنح. ولكنه حين يخفق في إرضاء مطالبهم، يتجه إلى إشعال الحروب واحدة تلو الأخرى "حتى يشعر الشعب بحاجته إلى قائد" (٥٦٦). وهو يجند الشعراء لخدمة أغراضه، ويجعلهم "يطوفون البلاد واحدة تلو الأخرى فيجمعون الجماهير، ويستأجرون أصحاب الأصوات الرخيمة المقنعة"، (٥٦٨) - أي أن أفلاطون يؤكد حاجة الطاغية إلى تجنيد أجهزة الدعاية لخدمة أغراضه، وإن لم يكن لفظ الدعاية قد أظهر في ذلك العصر بطبيعة الحال. ويبدع أفلاطون في وصف حالة الرعب التي يعيش فيها الطاغية، وخوفه من أن ينقض عبيده عليه (٥٧٢ - ٥٧٩). وهو يجمل الوصف بقوله إن ذلك الذي يظن نفسه أكثر الناس حرية، هو في الواقع أكثرهم عبودية: فهو مضطر إلى تملق الناس، وهو عاجز عن تحقيق أبسط رغباته، وهو يقضي حياته في خوف دائم (٥٧٩). فهل يمكن أن يقال عمن يقدم مثل هذا التحليل النابض بالحياة لحالة

---

[1] Sinclair : Op. Cit., p. 245.

Scanné avec CamScanner

الطاغية أنه لم يكن يستمد أفكاره من واقع العالم السياسى، وإنما من "مثال" الدولة كما صوره له خياله فحسب؟

الواقع أن من أهم أسباب تناقض الصورة التى يرسمها أفلاطون، أنه كان يفكر فى المستقبل بعقلية الماضى. فالإصلاح الذى يدعو إليه، والذى يعتقد أنه سيؤدى إلى قلب الأوضاع السياسية والاجتماعية رأسًا على عقب، هو فى واقع الأمر محاولة للاقتداء بالماضى البعيد. وهكذا يبدو أن أفلاطون "يجد سبيل التقدم فى طريق التقهقر"، كما يقول باركر[1]. فهو يدعوه إلى إزالة الشحم من الدولة المترفة. وإعادتها إلى الاقتداء بالماضى فى بساطته: فالطب ينبغى أن يعودإلى عهوده البدائية الأولى، والمقامات الموسيقية ينبغى أن تكون "بسيطة"، وأن تتخلى عن كل تعقيد. والنظام الشيوعى الذى يقترحه يعنى العودة إلى الحالة البدائية للمجتمع البشرى - حالة شيوعية التملك - والأهم من ذلك كله، نوع الوحدة الذى كان يدعو إليه: ففى الديمقراطية الأثينية كان التنوع هو القاعدة السائدة، وكان من الطبيعى أن يدب الشقاق داخل دولة تسمح لكل الاتجاهات بالتعبير عن ذاتها. أما أفلاطون فكان يحن إلى نوع من الوحدة هو أشبه ما يكون بوحدة القبيلة القديمة، حين كان الأفراد جميعًا يكونون أسرة واحدة. ولا شك أن كل ما أدخله من تغيير فى نظام الأسرة إنما كان يستهدف جعل المجتمع كله أسرة واحدة، بحيث يتصور كل فرد أن الباقين آباؤه وأمهاته وإخوته - وتلك بعينها هى وحدة الدم فى المجتمعات القبلية.

ولعل أوضح سمات هذه المجتمعات القبلية التى كان أفلاطون يحن إليها، هى انعدام الفردية، أى تلاشى الفرد فى الكل الأكبر الذى يكونه المجتمع الكامل. فهل كان أفلاطون ينكر الفردية إلى هذا الحد؟ لا جدال فى أن من الصعب - لأول وهلة - أن نجيب عن هذا السؤال بالإيجاب. ذلك لأن فلسفة أفلاطون تبدو فى ظاهرها دفاعًا مجيدًا عن الفرد، ودعوة متحمسة إلى تأكيد القيم الفردية. ألم يفسر بعض الشراح محاورة الجمهورية بأسرها - كما أوضحنا من قبل - بأنها تستهدف تربية النفس الفردية وتهذيبها؟ ألم يكن أفلاطون أبا المثالية - والمثالية هى المذهب الذى يرفع لواء الفردية؟ ألم يوصف أفلاطون بأنه "فيلسوف إلهى"، يدعو إلى العلو بالنفس الفردية إلى مرتبة القداسة؟ كل هذه تفسيرات شائعة لاتجاهات أفلاطون، وهى تمثل دون شك

---

[1] E. Barker : Greek Political Theory, P. 266.

Scanné avec CamScanner

عقبات لا يسهل التغلب عليها، فى وجه الرأى القائل أن فلسفة أفلاطون السياسة تدعو إلى إنكار الفردية.

ومع ذلك، فهناك شواهد أكثر يقينًا على أن أفلاطون كان يستهدف مثل هذه الغاية بالفعل - أى أنه كان فى صميمه فيلسوفًا معاديًا للفردية فالمبدأ الرئيسى للعدالة - وهو أداء كل لوظيفته - يعنى تغليب المصالح العامة للمجتمع على مصالح الفرد: إذ أنه يؤدى إلى القول بأن الفرد لا يستطيع أن يحقق ذاته إلا بالقدر الذى تقتضيه الخطة العامة المرسومة للمجتمع. صحيح أن هذا التحقيق الذاتى متوقف على ما يسميه أفلاطون "بطبيعة الفرد"، بحيث أن الفرد ذا الطبيعة المتعددة الجوانب يستطيع أن يحقق ذاته بقدر تعدد جوانب طبيعته. ومع ذلك فإن من المشكوك فيه أن يكون من الممكن فى كل الأحوال الاهتداء إلى الحدود الحقيقية لما يسمى بالطبيعة الفردية: إذ أن هذه الطبيعة قد تكون محدودة الجوانب أو ضيقة النطاق نتيجة لظروف اجتماعية أو عوامل مكتسبة، لا نتيجة لتركيب متأصل فيها. وفى هذه الحالة يكون المعنى الحقيقى للمبدأ الأفلاطونى هو أن يؤدى كل فرد الدور الذى يلائم الوضع المحدد له فى المجتمع.

ومما له دلالته أن يبجر ذاته، وهو أول المدافعين عن الفكرة القائلة إن كل الآراء الفلسفية التى عرضها أفلاطون فى محاورة الجمهورية تهدف إلى تنمية النفس الفردية، يعترف بأن الطبقة الحاكمة عنده تتنازل عن كل مصالحها واهتماماتها الفردية فى سبيل تحقيق مصالح الدولة. فهو يرى أن التنظيم الذى وضعه أفلاطون "يؤدى إلى القضاء على آخر بقايا الفردية، أعنى ذلك الحق الذى لم تجرؤ دولة أخرى على المساس به، وهو حق الفرد فى جسمه. ذلك لأن أفلاطون عندما يصف فى سياق آخر حالة الحراس الذين عدموا الملكية بقوله إنهم بالفعل إلى الأمر فى ضوء علاقة الزوج بالزوجة. وكل ما يمكن أن يكون قد قصده هو أنهم "يملكون" أجسامهم، لا أنهم يستطيعون استخدامها بحرية"[1]. فإذا كان هذا هو البرنامج الذى وضعه أفلاطون لأعلى الطبقات عنده - أعنى تلك التى يتجه نظامه التعليمى بأسره إلى تكوينها، بل لا يستهدف إلا إياها - فكيف أمكن ليبجر نفسه أن يحدد هدف محاورة الجمهورية بأنه تربية النفس الفردية؟ أو بعبارة أخرى، كيف يمكن عقلا أن تكون النتيجة النهائية للبرنامج الذى يهدف إلى تنمية شخصية الفرد، هى القضاء التام على كل النوازع الفردية فى هذه

---

(1) Paideia : Vol. II, P. 248.

Scanné avec CamScanner

الشخصية؟ من الواضح أن فى هذا تناقضًا يبلغ من الشدة حدا يعجب معه المرء لوقوع مؤرخ فلسفة كبير مثل "بيجر" فيه.

ولعل الدليل القاطع على أن فلسفة أفلاطون السياسة كانت مضادة تمامًا للنزعة الفردية، هو دعوته الصريحة إلى ترك الضعفاء والمرضى يموتون، بل إلى قتلهم إذا اقتضى الأمر. فهو يقول - بلهجة لا يستطيع أى مفكر فاشى أن يجاريها فى قسوتها - إن من الواجب أن "يعنى الأطباء والقضاة بالمواطنين من ذوى الطبائع الجسمية أو النفسية السليمة، أما من عداهم، فسندع منهم أولئك الذين اعتل جسمهم يموتون، وسيقضى المواطنون ذاتهم على أولئك الذين اعوجت نفوسهم وانحرفت طبائعهم".(٤١٠) ومعنى ذلك، بعبارة أخرى، أن حق الحياة - وهو أول الحقوق وأبسطها - ليس حقًا طبيعيًا للفرد، وإنما يكون للفرد هذا الحق بقدر ما يكون سليمًا وصالحًا لخدمة المجتمع وأداء وظيفته فيه فحسب.

ومن جهة أخرى، فلا جدال فى أن نقد أفلاطون للديمقراطية، وتحامله الشديد عليها، يدل على نزوع قوى إلى ما يطلق عليه فى المصطلح السياسى الحديث اسم الفاشية. فالجماهير فى رأيه فى حاجة دائمة إلى من يوجهها ويرشدها، وهى "قطيع" لابد له من راع، وتفتقر إلى الذكاء أو التجربة التى تتيح لها إدراك مصالحها الخاصة ذاتها. والمساواة فى الديمقراطية شر مؤكد، وكذلك الحال فى الحرية، التى تصل فيها إلى حد أن يتساوى العبيد بأسيادهم، وتهيم الحيوانات ذاتها على وجوهها فى الطرقات دون ضابط. وفى الديمقراطية تترك الفنون حرة، ويكون للشعراء مطلق الحرية فى أن يقولوا ما يشاءون، بالأسلوب الذى يفضلون، وهى كلها فى نظر أفلاطون مظاهر للجموح والفوضى ينبغى التخلص منها فى المدينة المثلى.

ولا شك فى أنه، إذا صح أن مذهب أفلاطون السياسى يستحق اسم الفاشية بناء على الأسباب السابقة، فمن الواجب أن نذكر أن هذا الوصف لا ينطبق عليه بكل عناصره. فمن الإنصاف لأفلاطون أن نقول أن تفكيره لم يكن يتصف بعنصر أساسى من عناصر الفاشية، ألا وهو الغوغائية أو الديماجوجية - أى استغلال غرائز الجماهير وانفعالاتها السطحية من أجل تحقيق أهداف الحاكم. فهو بالفعل يدعو إلى أرستقراطية العقل والحكمة والفكر، وهى عناصر تتنكر لها الفاشية ولا تقيم لها وزنًا. أما العنصر الذى يستحق أفلاطون بالفعل أن يسمى من أجله فاشيًا، فهو فقدانه الثقة فى الإنسان العادى، واعتقاده الراسخ بأن هذا الإنسان لو ترك وشأنه لضل الطريق، وبأنه فى حاجة دائمًا إلى توجيه من حاكم مطلق أعقل منه وأحكم. هذا الاعتقاد بضرورة فرض وصاية على الإنسان العادى

Scanné avec CamScanner

ربما كان أهم العناصر المميزة لكل مذهب فاشى، وعلى الرغم من أن هذه الوصاية عند أفلاطون هى وصاية العقلاء والحكماء، وليست وصاية الديماجوجيين أو من يستغلون الدعاية الرخيصة فى تخدير حواس الجماهير، فإن آراءه السياسية تظل مع ذلك تستحق اسم الفاشية.

وأخيرًا، فقد وصف أحد الكتاب مدينة أفلاطون الفاضلة بأسلوب ساخر، ينطوى مع ذلك على قدر غير قليل من الحقيقة، فقال: "أن جمهورية أفلاطون تتألف من موظفين ومحاربين وصناع وحرفيين وعبيد وأناث، ولكنها لا تتألف من بشر. فكل فرد مسمار أو عجلة ذات شكل معين فى آلة الدولة، وفيما عدا هذه الوظيفة الرسمية، فليست له أهمية فى أى شىء آخر. وهو ليس ابنا ولا أخًا ولا زوجًا ولا أبًا ولا صديقًا ولا حبيبًا. وهو يؤخذ من صدر أمه عند مولده، ويوضع فى دار للطفولة .. ويربى بنفس الطريقة التى يربى بها الأطفال الآخرون فى سنه. وما أن يستطيع التذكر والوعى بذاته، حتى يشعر بأنه ملك للدولة، ولا يرتبط بشىء أو بأحد فى هذا العالم. وعندما يكبر، تعطى له وظيفة محددة، ويصبح محاربًا، كما تصبح التمرينات العسكرية مهمته وملهاته الرئيسية .. وعندما تنب لحيته وتقوى رجولته، يفحصه خبير خاص، ويقدم عنه تقريرًا، ثم يأتى إليه بفتاة يعتقد أنها تليق بأن تصبح رفيقة لهذا الشاب. وتنشأ الذرية على النحو الذى يفيد المجتمع، وتعامل بنفس الطريقة التى عومل بها الأبوان"[1].

صورة رهيبة هذه ولا شك – ومع ذلك فقد تغنى بها الكتاب، ومجدها المفكرون، وأشادوا بمبدعها ووصفوه بالفيلسوف الإلهى. ولست أدرى: أكان ذلك نفاقًا منهم، أم تحيزًا لجانب معين إلى الحد الذى يعمى البصيرة عن كل الجوانب الأخرى؟ قد يكون فى الأمر قدر من هذا وقدر من ذاك، ولكن الأهم من ذلك كله هو أن تضارب التفسيرات دليل على عظمة العمل الذى يفسر. ومن المؤكد أن جمهورية أفلاطون تقدم إلينا مثلاً آخر للعمل الفلسفى الرابع الذى يجد فيه كل قارئ ما يريد. وإذا كان ما وجدناه فى مبادئها السياسية شيئًا يدعو إلى النفور، فلنعترف مع ذلك بأنها علم عظيم، بدليل أنها، على الرغم من كل عناصرها المنفرة هذه، استطاعت أن تكون جزءا لا يتجزأ من تراث الفكر الغربى، وربما الإنسانى، بل كانت من المؤلفات الفردية القليلة التى أسهمت فى تشكيل ذلك التراث وصبغته المميزة.

---

[1] Dimitry Pisarev : "Plato's Idealism" in : "Selected Philosophical, Social and Political Essays". Moscow, 1958, PP. 68 – 69

Scanné avec CamScanner